Original Article مقالة أصيلة

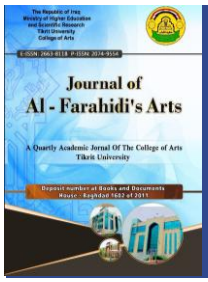

Tikrit University | جامعة تكريت
مجلة آداب الفراهيدي
Journal of Al-Farahidi's Arts

الاستيعاب الحضاري للآخر في المتن الروائي - رواية صديقتي اليهودية لصبحي فحماوي اختياراً

م. د. محمد عبد الله غثوان
قسم الرياضيات، كلية التربية الأساسية، جامعة تكريت
صلاح الدين، العراق

Civilizational Assimilation of The Other in The Narrative Text – My Jewish Friend's Novel by Sobhi Fahmawi by Choice

Lecturer. Dr. Mohammed Abdullah Ghthwan
Department of Mathematics, College of Basic Education, Tikrit University
Salahuddin, Iraq

SUBMISSION التقديم	ACCEPTED القبول	E-PUBLISHED النشر الإلكتروني
26/02/2025	25/03/2025	13/05/2025

P-ISSN: 2074-9554 | E-ISSN: 2663-8118 https://doi.org/10.25130/jaa.17.61.11 Vol (17) No (61) May (2025) P (155-164)

الملخص

يتناول هذا البحث المعنون: (الاستيعاب الحضاري للآخر في المتن الروائي رواية صديقتي اليهودية للروائي صبحي فحماوي اختياراً) قضية مهمة في الخطاب الروائي العربي هي استيعاب الآخر؛ إذ أنَّ الرواية بشكلها الفني والمعرفي ترتبط بالآخر، وإن كان على مستوى النصوص في السرد على وجه الخصوص، فهي تتعامل بين أكثر من هوية (المسلم/اليهودية) داخل بناء السرد الذي يشتغل جاهداً؛ لإقامة حلقة خطابية تواصلية بين منطقتين حساستين عبر لغة، وتشكيلة الوصف التصويري للفكر في العمل السردي، واستحضار لهويته الذاتية داخل هذا النتاج؛ ما هي إلا عملية بث رسالة سردية تنطلق من بؤرة حساسة؛ لإضاءة وكشف مكنونات الآخر بعيداً عن أولويات أفكاره عند المواجهة، لحظة تفريغ الشحنات المتراكمة في الذات، تراكمات فعل ترسيخ الذات والهوية أمام الآخر، وما يمثله خطابه الحضاري الذي يسعى لتنوير الآخر به وإقناعه، واستخدام أدواته المعرفية وبثها في متن الرواية عبر عناصرها وبوجه الخصوص عنصر الحوار الذي يجابه به، ويعرض أفكاره عن طريقه وكيفية نقاش الآخر باستخدام أدلته، وهو في هذا الحوار المحتدم يضيء لنا الجانب المخفي في النفس البشرية وما تكنه، وكشف الذات وابراز الآخر في عين الأنا.

الكلمات المفتاحية

الاستيعاب، الخطاب الحضاري، الحوار، الأنا، الآخر

ABSTRACT

This research, entitled: (Civilizational Assimilation of the Other in the Novelistic Text, My Jewish Friend, by Subhi Fahmawi, by choice), deals with an important issue in the Arab narrative discourse, which is the assimilation of the other; since the novel, in its artistic and cognitive form, is linked to the other, albeit at the level of texts in the narrative in particular, as it deals between more than one identity (Muslim/Jewish) within the narrative structure that works hard to establish a communicative discourse circle between two sensitive areas through language, and the formation of the pictorial description of thought in the narrative work, and the evocation of its self-identity within this product; it is nothing but a process of broadcasting a narrative message that emanates from a sensitive focus; To illuminate and reveal the hidden aspects of the other, far from the priorities of his thoughts when confronted, the moment of discharging the accumulated charges in the self, the accumulations of the act of establishing the self and identity in front of the other, and what his civilized discourse represents, which he seeks to enlighten and convince the other with, and to use his cognitive tools and broadcast them in the text of the novel through its elements, and in particular the element of dialogue with which he confronts, and through which he presents his ideas and how to discuss the other using his evidence, and in this heated dialogue he illuminates for us the hidden side of the human soul and what it contains, and reveals the self and highlights the other in the eye of the ego.

KEYWORDS

Comprehension, Civilized Discourse, Dialogue, Self, Other

Copyright and License: This is an Open-Access Article distributed under A Creative Commons Attribution 4.0 License, which allows free use, distribution, and reproduction in any medium provided the original work is properly cited.

المقدمة:

إنَّ قضية استيعاب الآخر في الخطاب السردي الحضاري التي نتلمسها في النصوص بمستواها الواقعي، أو الفني في الرواية؛ تتطلب المزج بين ثوابت الفكر المطروح وبين فكر الأنا المستوعبة مكونة منها نقطة التقاء واستيعاب لكليهما؛ ولكي تتم هذه العلاقة ومقترحاتها وسبل تلقيها وإدراك حدودها بأشكال مختلفة تبعاً للأسس التي تقوم عليها، فنقطة الالتقاء واستيعاب الآخر في تشكيل المادة الأساس لمشروع السرد الروائي؛ عبر إقامة إطار من الثنائيات بين الأنا الساردة، والآخر على مستوى الفكر الحضاري والثقافي والنسيج الاجتماعي وثوابت المعتقد من خلال عدة منطلقات تشكل منها المشروع السردي تبدأ بعتبة العنوان (صديقتي اليهودية) مروراً بالهوية داخل المتن على اعتبار التمازج بين (جمال المسلم/يائيل آدم اليهودية)، والطرح الفكري وإثبات الذات المسلمة واليهودية وتمظهر الحوار بينهما، وإنشاء قواسم مشتركة في المكان وطبيعته المؤثرة والفضاء، وتشكل رؤية واضحة وجلية عن الآخر الذي هو الأنا في الوقت ذاته بعين كليهما؛ لكشف المضامين والمكنونات التي يبوح بها السرد عن طريق الحوار الذي يبث الفكر والايمان المطلق الذي ترتكز عليه كل شخصية في إبراز تفكيرها وسبر أغوار ما تكنه من مضمرات فكرية، والاشتغال على تميز الانفرادية، وكسر أفق التوقع المتمركز داخل عتبة العنوان واستيعابه وإجتراره إلى داخل فضاء الأنا الساردة.

المبحث الأول: خصوصية ثقافة الخطاب السردي بين الأنا والآخر:

إنَّ الاستيعاب وبالأخص الحضاري منه هو الركن الأساس الذي يبنى عليه هذا السرد والذي يشكل خصوصيته الثقافية لناطقه على إعتباره يمثل ذاته، أو يمثل فئة مجتمعية تختلف ثقافتها وتفكيرها عن الأخرى التي تمتاز بخصوصيتها العرقية والثقافية الدينية، والحيز المكاني الذي تشغله بوجودها الفعلي، أو ما تفكر به أنَّه مكانها الحقيقي في جغرافيا التفكير الذي يفترض أن تتواجد فيه، فتظهره عبر خطابها؛ لتبين هذه البنية وتأصيلها وتشكيلها ومحاولة تفردها في بعض الأحيان، على اعتبارها مادة هذا العالم وجوهره، أو محاولة فرض نظرة متعالية بعض الشيء على الآخر ومحاولة ازاحته فكرياً، دون الايمان بحريته الفكرية واستيعاب الآخر وتقبل حواره إذ إنَّ فكر الانسان "لا يخضع إلى جنسهِ بل نتيجة حتميَّة للتركيب الحضاري السائد في مجتمعه" (قيس النوري، ١٩٨١ :٨٧)، ولكن خصوصية الخطاب يجب أن تحمل في جعبتها نوع من التقبل في تبادل الأفكار؛ إذ تتأرجح كفته في كثير من الأحيان خصوصاً عندما يكثر طرح الأدلة والنقاش بشكل حضاري في الأحقية لأحد الأطراف المتخاطبة لذلك يبرز السرد عن طريق الرواي أفكار وماهية هذه الخصوصية التي كانت تفكر، والتي تبثها كرسائل سردية بصيغتها التحاورية التي يلجأ إليها الكاتب في التعامل مع الآخر والموازنة بين إيمانه بفكره الذي يسعى إلى إثباته، ونقاش الآخر في تقديم حجته بسرد واضح تتجلى أمامه ثوابت راسخة بالرغم من اختلاف الافكار والثقافة والبيئة والمعتقد إذ لا "يقتصر دورها على نشر الاقتناع خارج دائرة الآباء المؤسسين لتجعل منه عقيدة للجماعة بكاملها" (پول ريكور، ترجمة محمد برادة، ٢٠٠١ : ٢٤٠)، لذلك يجب أن تكون بصدر رحب متقبل للآخر كاشفاً ما يكنه وما يحاول بثه وطريقة تلقيه واستيعابه بعين الآخر الذي يوجب عليه أن يضع نفسه مكانه.

١- المحور الأول: الاستيعاب ضمن النطاق الحضاري:

إنَّ الاستيعاب من المنظور الحضاري هو نطاق بث ثوابت الذات، سواء لاقت القبول أو الرفض، هو استيعاب قول يمتلك الخصوصيةَ الثقافية؛ وبالتالي هو فضاء رحب يستوعب الكثير من الطروحات الفكرية والذاتية المتمثلة بخصوصية الذات الثقافية، والتي تتراءى عبره هوية الفرد وطبيعة طروحاته سواء الفكرية أو الواقعية المعيشة " فالهويةُ ليستْ كياناً يُعطى دفعةً واحدةً وإلى الأبد؛ إنَّها حقيقةٌ تنمو وتتكونُ، وتتغايرُ وتشيخُ، وتعاني من الأزماتِ الوجوديةِ والاستلابِ " (اليكس مكشيللي،١٩٩٣: ٨)، والسعي من أجل تكوين فضاء خاص يمثل حيز وجود الذات بعيداً عن تواجد الآخر؛ إلا أن مميزات هذا الخطاب؛ تعمل على مد جسور تقارب بين ثوابت منطلقات الفكر الذي يبوح به وبين فِكر المخاطب الآخر، إذ تشتغل كل ذات على أحقية ملكيته الثقافية

والفكرية والعقائدية والاجتماعية، ومحاولة تشكيل هيمنة منفردة لها ولزمانها ومكانها وعرضه أمام الذات الأخرى محاولة إلغاءه عن أساسيات هذا الفضاء؛ إلا أن كل ذات تعمل دوماً جاهدة على إبراز كينونتها وتشكيل هويتها الثقافية أمام الآخر والعمل على استفزازه، أو سحبه إلى فضاء الوجود الذاتي، ودحض طروحاته ونشوة الانتصار عليه داخل فضاءه الفكري وسحبه إلى فضاء الأنا ليتم استيعابه ومعايشته تحت الفضاء نفسه وهذا ما يصف به الراوي الآخر: **"سعادة السفير ابتلع العبارة التي ردَدْتُ بها، وقد تعوّد بمهنته الدبلوماسية أن يبتسم ابتسامة لبقة، لقاء أي انتهاك صحفي لقداسته، ولكنه لم يستطع أن يبتلع كلمة (الصهاينة) اسمع! كل شيء إلا الصهاينة..اشتم أبي، والعن أمي، ولا أعرف ماذا تفعل لأخي أو لأختي، أو حتى لزوجتي ووطني، ولكن الصهاينة خط أحمر. اسمع! المسألة مسألة مبدأ!"** (صبحي فحماوي، ٢٠١٥: ١٢).

يبدأ الراوي بوصف الشخصية الاستيعابي على وفق الصفة التي رسم بها مكانته لا وصف خارجي بل ابتدأ بتشكيلها فكرياً وثقافياً ليس تشكيل كتلي ووصف خارجي مركزاً على حواره وما سينطق به؛ لذا فهو خطاب مشتغل على أكثر من صعيد داخل نطاق التحدي الثقافي: أولهما تنامي خطاب الذات، ومحاولة بث موقفها مع الآخر عن طريق العبارات بوصفه آخر محاولة منها إبراز ذاتها وتأصيل هويتها العربية، وبث جزء من مكنونها الثقافي والعقائدي تجاه الآخر، أما الصعيد الآخر فلا يبتعد كثيراً عن منطلقات الصعيد الأول وطبيعة اشتغاله داخل منطقته نفسها، إذ تندفع فيه الهوية الثانية في الدفاع عن كيانها ووحدتها أمام الذات المنتقدة، محاولة منها لتأصيل هويتها على اعتبار أنَّها تمثل كيان أمة واحد مستقل له كيانه وتركيبه الثقافي والتاريخي وبناؤه الاجتماعي والنفسي وتمثيل لغته التي يشترك فيها، وهذا التناظر في حدود النطاق الحضاري يشتغل على هذا المنوال في تأثيث أصول الذات والدفاع عن كيانها، ومنه كذلك ما سيورد من شاهد يشتغل في سرديته على تأصيل هذا الخطاب:

"في قاعة الخارجين من المطار التقيت بالصدفة أحد زملائي، من عمّان بالأحضان. العرب يلتقون في أي مكان، فيُسلِّمون على بعضهم بالقبلات، وكأنهم يتبادلون شمَّ دفء حنان بعضهم لبعض." تبتسم يائيل آدم" (فحماوي، ٢٠١٥: ٢٤).

إذ تبث فيها الذات محاور طبيعة صورتها العربية؛ لتؤسس نمطية تختلف فيها عن الآخر، محاولة منها الاشتغال على إبراز حدودها المنفردة، والعمل على زج هذه النمطية أمام الآخر لدواعي الإثبات والتأصيل ومحاولة إقناع الآخر بهذه الهوية وطبيعة سلوكياتها أمام هذا التحدي الكبير، والذي ستفصح فيه الذات على جزء هام من مكنونها والتي تبرز فيها فرحها الشخصي الرئيس لأنَّها تمثل الآخر/يائيل/.

ومن صور النطاق الحضاري هو خطاب الآخر الذي يحاول فرضه دون استيعاب المقابل والتفكير بقناعاته ووجوده:

"هكذا تقولُ (الأممُ المتحدةُ) ضدنا بعد كلّ احتلال أرض في (فلسطين): لا بد من ضبط النفسِ فنربط الأحزمة، ونضبط أنفسنا، فيحتل المحتلون احتلالات شاسعة جديدة، ويبنون عليها مستعمرات يهودية جديدة، برؤوسها المصبوغة بقرميد أحمر يقطر دماً من رأس كل عمارةٍ مشيدةٍ على الطرازِ الفلسطيني الحجريّ التقليدي.. فينتفض المعذبون في الأرض ... هكذا قالوا لنا: "إنها انتفاضة" ... تُرى، هل سموها "انتفاضة" ؟، لأن الديك الذبيح ينتفض وهو يموت؟" (فحماوي، ٢٠١٥: ٣١).

إذ تنطلق من تصريح مكثف يصور صراع هذه الذات المنتفضة ضد الآخر للدفاع عن هذه الهوية على اعتبارها هوية متفردة أصيلة، وبتصريح يشتغل على كشف الكثير مما يقدم على فعله هذا الآخر، أمام تحدي هذهِ الذات والعمل على إقامة مرتكزات تقوم عليها هذه الهوية القلقة أمام هذا الصرح المتكامل والمتجانس الأطراف والذي يمتد آلاف السنين، والاشتغال على تبيان أكثر من زاوية لهذا الخطاب السردي: أولهما بيان موقف الهوية الغربية وطبيعة منطلقاتها تجاه الهوية العربية التي تحاول انكار وجودها، وثانيهما العمل على عرض مظلومية الذات العربية عبر هذا الخطاب السردي وبثها لذاكرة التلقي في المكان الذي يؤثثه الروي بتشكيل وصفه المستلب لأساسيات الحياة للآخر الذي اعاد ترميم هذا المكان وفق تعطشه ونشوة انتصاره،

ومحاولة من الراوي في هذا الوصف فضحه بهذا الوصف وتصويره ووضع كل ذات داخل منطقة تحدٍ تتناسب مع حجم صراعها في اثبات وجودها، ومنه كذلك الحوار الدائر بين جمال المسلم ويائيل اليهودية:

"وبدل أن يجري الذهب بين أيديهما، ستجري بين أيديهما دماء غزيرة!" تشمئز يائيل من هذا التشبيه، فتقول:"لا تقل تدميراً.. نحن اليهود نريد أن نجد مكان لنا تحت الشمس، نُريدُ أنْ تكونَ؛ لبني إسرائيل دولة نسميها دولة إسرائيل، لا تقولي: (إسرائيل)، قولي: (فلسطين)، لا تَقلْ: (فلسطين)، قُلْ: (إسرائيل) ..... تُرى لماذا تدمرين حياتك وحياة أولادك بيديك يا يائيل؟" (فحماوي، ٢٠١٥: ٦٤).

من هنا يبدأ التحدي بينهما عبر الحوار المتمركز على قضية إثبات الهوية، ومحاولة إيجاد كيان لهذه الذات التي يظهر القلق واضحاً جلياً عليها، محاولة تأثيث وتأصيل على أنقاض الآخر المتمركز داخل حدوده؛ لينطلق التحدي الحضاري داخل هذا الحوار بين هويتين الاولى: تحاول إيجاد منطقة تمركز لذاتها القلقة، والثانية: تقف داخل منطقتها في دفاع مستمر عن هويتها ووجودها أمام الآخر المتحدي، كل ذات تحاول أن تؤصل لنفسها وتبث ثقافتها المراد تمركزها على الآخر؛ ولكن من يمتلك أدلة وأحقية في طبيعة التحدي تتوسع منطقة تحديه لردع افكار الآخر، وهذا يعتمد على طبيعة الذات وما تمتلكه من المخزون الذاكراتي الثقافي والإرث الحقيقي وطرحه أمام الآخر على اعتباره خطاب ثقافي منفرد يمثل جماعة لها هويتها الثقافية؛ فتنطلق هذه الذات العربية في دحض منطلقات الآخر ومحاولة توجيهه نحو تصويب البعض من ثوابت ذاته، وسحبه عن منطقة الخطر ليتم استيعابه على أنه آخر حضاري لا يحاول إلغاء كيان الآخر.

٢- المحور الثاني: الاستيعاب على أساس التحدي الحضاري:

هو تحدي يقف أمام الخصوصية الحضارية وما تمثله من منطلقات؛ إذ تسعى إلى فرض خطاب ثقافي عالمي ذي رؤية أحادية في تحديد ثوابته وأهدافه؛ خطاب يسعى للسيطرة التامة على عالم الأشخاص والأفكار، وهذا التحدي يقترب كثيراً من النطاق الحضاري إلا أنَّه يفترق معه في نقطة جوهرية تميزه؛ فالنطاق الحضاري يُمثل الخصوصية الثقافية، وتبيان مدى الفوارق بين الخصوصياتِ الثقافيةِ الأُخرى؛ و"تشكيل علاقات مُنتظمة إيقاعية ترابطية ما بين الأحداث والشخصيات والأمكنة والأزمنة، بحيث يمتحن الشكل والمضمون في حالة قدرة الكاتب على تشكيل علاقات دقيقة ومتواصلة وممنطقة ومبررة ومفسرة" (د. أحمد الزعبي، ١٩٨٦: ١٠)، أما التحدي الحضاري هنا فإنَّه يُمثل الخصوصية الحضارية، فهي سياسية نوعاً ما، تعمل على تحجيم دور الآخر، وإلغاء ما يؤمن به وإثبات ما تريده، ومحاولة التسلط على شتى مكونات الوجود الإنساني، مكونة منها صرح سياسي حضاري تمتاز به عن كل الموجودات.

إن قضية التحدي الحضاري قضية مهمة تتطلب التعايش مع منلطقات الذات التي تطرحها؛ إذ يمكن عده استلاباً حقيقياً لكل الخصوصيات الحضارية التي تمثل الآخر؛ فهي تسعى لاستلاب الخطاب الثقافي وفرض خطابها الخاص برؤيتها الخاصة بعيداً عن الرؤى الأخرى المقابلة لها، واستلاب فضاء الآخر وعالم أفكاره وصنع آلة منه يمكن أن تتجاوب مع خطابه ومنطلقات فكره بعيداً عن المحاورة والتأرجح بين قبول البعض المتوافق معها ورفض البعض الآخر؛ وإنما تتطلب استسلاماً تاماً وتنازلاً عن الهوية والمكان والزمان والتأريخ واللغة وكل ما يمثل الذات والرضوخ أمام خطابها الثقافي ذي الرؤية الأحادية والتي تظهر جلية في هذا النص:

"نظر إليّ بلؤم، ولم يجب.. كانت زيارته الودية تلك، هي الأولى والأخيرة إلى منزلي.. هم يريدون أن يُسمعوك أوامرهم.. (يو مست. يو مسط.. يو مصط...) "يجب عليك". هكذا أمرتنا ملكة جمال الكون (كوردلينارالس). هي لا تريد أن تسمع منك حرف (بِمّ). ترجوها، فتقول لك: ولا حرف!" (فحماوي، ٢٠١٥: ١٣).

يشتغل هذا الخطاب على تأصيل منطلق هذا التحدي الحضاري في فرض خطابه بلوازم اللغة الآمرة التي يجب الاستجابة لها دون تفكير (هم يريدون أن يُسمعوك أوامرهم.. (يو مست. يو مسط.. يو مصط...) /يجب عليك/ سواء في فرضه البعيد أم القريب من هذه الذاكرة، إذ أنَّه يؤسس؛ لتبيان صورة الآخر في محاولة فرض خطابه على الذات العربية في محاولة منه لاستلاب وحدة خطابه العربي، وتقويضه أمام الآخر، تتجلى هذه

المفارقة بمنطوق هذا الخطاب وناطقه "هكذا أمرتنا ملكة جمال الكون (كوردلينارالس). هي لا تريد أن تسمع منك حرف (بِمَ). ترجوها، فتقول لك: "ولا حرف!" إذ أنَّها محور استلاب حقيقي لدحض ثوابت الذات الأخرى.

فيحاول الراوي عرض تغييرها للحقيقة على وفق قناعاتها التي تريد اثباتها لغيرها:

"فتقاطعني قائلة: احكِ لي كيفَ تمَ (السبي الكبير) ليهودِ فلسطين بيدِ نبوخذ نُصَّر؟، قال المؤرخُ الفيلسوفُ اليهوديُ الأمريكيُ (نعوم تشومسكي): إنَّ نبوخذَ نُصّر لَم يسبِ يهوداً، وإذا كان فعلها فقد يكونُ سبى قادةً فلسطينيين وكنعانيين.. مُعارضينَ لانضمامِ بلادِ الشامِ إلى مملكته. ويقول المؤرخ العراقي (فاضل الربيعي): إنَّ نبوخذَ نُصَّر سبى شيوخَ اليهودِ، وقادتَهم المعارضين لهُ في بلاد اليمنِ وليس غيرها..... ولكن لم أنت مهتمة بنبوخذ نصّر، ولستِ مهتمة بغيره من قادة تاريخ المنطقة، مثل حمورابي، أو هاني بعل، أو كليوبترا، أو الزبّاء، أو حتى بلقيس؟ هذا ما تنقصني معرفته، وبصفتك عربي، قلت أسألك" (فحماوي، ٢٠١٥: ٢٢-٢٣).

إلا أنَّها رُدت بخطاب يشتغل في نطاق هذا التحدي، وبأحقية تحمل أدلة كبيرة /أدلة تاريخية/ لا يمكن التغلب عليها؛ وهذه وظيفة الخطاب داخل هذا النّطاق المشتغل أساساً على فرض خطابه على الآخر بمجمل مفهومه، فتقاطعني قائلة: احكِ لي كيفَ تمَّ /السبيُ الكبيرُ/؟

في محاولة منه لكسر أُفق الخطاب والهيمنة، إلا أن مجابهته في رسالة تاريخية تشتغل على ممانعة استلاب هذا الخطاب بردها ذات الوثيقة التاريخية في محاولة منها لتصحيح منطلق ثقافتها المخزنة في الذاكرة التاريخية.

ثم يعرض لنا الراوي الأدلة متعجباً من محاولة انكار الحقيقة واستنكار السلوك الذي يُفرض على ابناء جلدته:

"وكيف تمت مساعدتهم بكل قوى الشر والطغيان، لخلق كيان إسرائيلي، يقوم على إلغاء الآخر، والحلول محله.. كان الرجل يصيح قائلاً:

يدّعون أن فلسطين هي أرض بلا شعب، وأنهم شعب بلا أرض، فلماذا لا تكون لهم.. ويقولون إن كل شيء يضعون أيديهم عليه هو لهم! أستغرب هذه الطبيعة التي تمد يدها على كل شيء تطوله، فيصير مِلكاً لها وحدها.. مدهش هذا الشايلوكي الذي يستولي على الآخر بكل صلف وعنجهية وبطش" (فحماوي، ٢٠١٥: ٥٣).

في هذه الصورة الملتقطة على لسان الراوي تتجمع حدود تشكيلية تفصح مطامع الآخر الذي يحاول سلب (الوطن/الأرض/التأريخ/الكيان/الهوية الثقافية... إلخ) لتؤسس فكرهم في فرض الأشياء، واستلاب المرغوب فيه بالنسبة لذواتهم الطامعة (يدّعون أن فلسطين هي أرض بلا شعب، وأنهم شعب بلا أرض، فلماذا لا تكون لهم.. ويقولون إن كل شيء يضعون أيديهم عليه هو لهم!) إلا أن وظيفة هذا الخطاب داخل التحدي الحضاري تقوم على تحجيم الآخر ورده (أستغرب هذه الطبيعة التي تمد يدها على كل شيء تطوله، فيصير مِلكاً لها وحدها.. مدهش هذا الشايلوكي الذي يستولي على الآخر بكل صلف وعنجهية وبطش) في محاولة منها لزجره وتبيان حقيقته المرّة تجاه الآخر الثابت.

المبحث الثاني: حوارية الأنا والآخر بين القبول والرفض:

لعلَّ الحديث عن هذه الثنائية الجدلية القبول/الرفض وما ينطوي تحتها من تقسيمات في تبيانها وطرحها وتلقيها، تسهب في الحديث عن الرفض، على إعتبار أنَّ القبول من الأساسيات الاجتماعية للحياة، التي تتقبلها الذاكرة الجمعية، باختلاف هويتها وتنوع شرائح مكوناتها، وعلى اعتباره مفهوماً مرتبطاً بالواقع الاجتماعي والبيئي والفكري لكل ذات إنسانية، باعتبارها مميزة للأشياء، وتعي فكرة الإرادة، وتمكن البصيرة في مواجهة التحديات، مما يتوجب على الإنسان "أن يكون أخلاقياً في رفضه، بمعنى أن يكون رفضه لغاية أسمى من أية دوافع غريزية"(سالم محمد ذنون،٢٠٠٢ : ١١)، وعرض مهمته الأخلاقية التي يجب أن يكون فيها الرفض ضمن أُطر أخلاقية متقبلة فلا يجب أن يكون "اتجاهاً معادياً أو سلبياً نحو شخص آخر"، (عبد المنعم حنفي، ١٩٧٨ :

٢/٢٥٥)، فالرفض مواجهة للذات الأخرى، تنطلق من عوالم نفسية وفلسفية وفكرية، على اعتباره سمة أساسية في الواقع المعيش أُدخلت على فضاء السردي وبلأخص عنصر الحوار، والذي يقتضي تواجد أكثر من هوية منسجمة داخل هذا الفضاء الذي يجب أن يكون رحباً، فتختلف كل منها حسب ثقافتها وطبيعة معيشتها الأرضية ومكونها الفكري والعقدي، وسلوكها الفردي، المتبع مع الآخر، لعل هذه التموجات والإرهاصات في سلوكيات كل ذات، تسعى للهيمنة على الآخر، عبر عدة منطلقات، كتجلي الحوار، ومحاولة استنطاق الآخر بمفاهيمه سواء العقائدي (مسلم/ يهودية) أو الثقافية والحضارية، مصحوبة بسمة حوارية رافضة.

١- المحور الأول: تمظهر استيعاب الاخر من خلال الحوار:

يقوم تمظهر الحوار في هذه الرواية بالاستناد إلى نظرة الأنا إلى الآخر، أو نظرة الآخر إلى الأنا، وعرض فحواها؛ سواء كانت نظرة هادئة، أم متزنة، أو مضطربة أو هازئة أو متسلطة؛ ولكي تتم معالجة النقطة الأساسية في هذا المضمار؛ "ننظر هل تصب ثقافة الأنا والآخر في فضاء واحد يتحركان فيه؟، تربطهما صلة مشتركة وقاسم مشترك واحد" (محمد مطلك، ٢٠١٤ : ٢٠٤)، فتتمظهر النظرة من خلال التواجد داخل هذا الفضاء الخاص، تبدو واضحة وادراكها لهذا الوجود الفعلي الذي لا يمكن تهميشه، وتبادلها المعرفي والثقافي في الحوار، والغوص في الحديث عن بعض خصوصيات الذات التي تحاور ومدى الاستيعاب الذي يكون على قدر الحقيقة المقدمة كما في النص الآتي:

"هذا ما قاله لي سفير أوروبي ذات ليلة وهو يزورني في بيتي مصطحباً زوجته في سهرة عشاء: "لماذا وجّه نبيُّكم محمد فتوحاته باتجاه خَضرةِ بِلادِ الشَمالِ وجَعلَ القدسَ (قِبلةَ) المسلمين؟ أليست عقدته من حياةِ الصحاري العربية هي الحافز، فُوجئتُ ليلتها بذلك السؤال الذي لم أسمع مثيلاً له، ولم أُحضِّر نفسي للرد على مثل هذه ال.... لم أعرف كيف أُجيب، فوجدت نفسي أقول له مندهشاً: "الإسكندر، والرومان، ونابليون وهولاكو والصليبيين، والاستعمار الغربي والصهاينة"، كلّهم كانت عندَهم عُقدة كراهية الخضرة فراحوا يبحثون عن التصحرِ، وهم يتوغلون في غزواتهم لبلاد العرب " (فحماوي، ٢٠١٥: ١١-١٢).

يشتغل هذا النص الحواري بينهما على تطبيع صورة لدى المتلقي تجعله يسترجع ذاكراتياً كأنَّه في فصل دراسي أمام ورقة اختبار تحتاج إلى تعليل، فهو في هذا الحوار يفصح ويبين مدى طبيعة تفكير الأنا، تجاه كينونة الآخر، وهذا ما يشتغل عليه الحوار داخل كل عمل سردي؛ فهو يبسط أمام ذاكرة المتلقي فحوى دوافع الآخر تجاه الذات، التي تعمل على استنطاقه، بطرح الأسئلة، أو طبيعة الردود الجوابية لفحوى أسئلته، وهذا ما فعلته الذات بردودها داخل منطقة الحوار السردي؛ إذ أنَّها ترد بأجوبة تمتلك القابلية على دحض الآخر، وسحبه إلى خارج منطقة تفكيره، وقناعاته وتفكيره، إلى منطقة الاستنطاق، والإقناع، وهذا ما يتطلب مخزون ذاكراتي ثقافي متنوع، لدى الذات المحاورة، فلجأ الراوي في النص إلى التداعي والاستذكار للرد المباشر الذي لا يحتمل التأجيل، فبالحوار يمكننا من تحديد منطقة تفكير الآخر، وما يمكن تبيانه أمام ذاكرة التلقي لكليهما، وما يحمل لنا في طياته فيرد قائلاً:

"لن تنتهي هجراتكم المتكررة، فأنتم شخصيات قلقة، دائمة الحركة، وفلسطين هي أرض معارك متواصلة، اعتدنا عليها منذ نشوء المعرفة على الأرض. ولذلك سماها رسولنا (أرض الرباط).. فلماذا ترسلون أبناءكم إلى أرض معارك مستمرة، في وقت تعيشون في الغرب، نعيم هذا العالم المتعولم الحديث؟ أضحك فأقول لها: يبدو أن فيكم جينات الهجرة يا يائيل! " (فحماوي، ٢٠١٥: ٦٤-٦٥).

عبر هذا الحوار السردي المليء بالإشارات والطروحات تبرز شخصيتان يمكن لكل ذاكرة أن تطبع لهما ملامح خاصة، تنكشف خلالها طبيعة هذا القبول والرفض تجاه الآخر؛ إذ تشرع الذات العربية إلى إيضاح حقيقة الآخر أمام المتلقي، بفضح كل سلبياتها، وعلى أنَّها شخصيات قلقة لا تعرف الانتماء، دائمة الهجرة والتنقل، محاولة منها على دحضها وعدم استساغتها، وفضح جُل ملامحها غير المرغوبة بها لدى الآخر ، إنَّ نوعاً كهذا من الحوار محمل بالكثير من الوثائق الذاتية عن الآخر، يخلق نوعاً من الاضطراب لديه، على اعتباره يحاول تأثيث أرضية متماسكة أمام خصمه، وبث حدود كون خاص به وبثقافته، إلا أنَّ الآخر دائماً ما يسعى

لرده واستنطاقه، وتحديد وجهة نظره تجاه الذات المتحاور معها، على اعتبارها تمثل خصوصيات ثقافية عربية؛ وهذا ما يثيرها ويزعجها ويقلقها في حوارها معه كما يرد في هذا الحوار:

"أفكارك غريبة يا جمال قاسم.. وعنادك بدأ يلفتني.. مجرد التفكير في وجهة نظرك يصيبني بالدوار." "أقول هذا لمصلحتكم ... صدقيني أن أجيالكم القادمة لن تستطيع مواصلة العيش في هذه البلاد القاحلة.. هذه البلاد لا يستطيع العيش فيها سوى أهلها الطبيعيون.. هل تعرفين كيف ارتدّ الصليبيون عن بلاد العرب، بعد أن سيطروا عليها، ودالت لهم البلاد، وتشتت العباد؟" (فحماوي، ٢٠١٥: ٦٨).

يشتغل هذا المقطع من الحوار السردي بين الذات العربية والآخر اليهودي في إبراز مدى التأثير العربي على الآخر، باعترافها المباشر والصريح، إذ تباشر بالتصريح، وكشف الكثير من الخفايا عن هذه الذّات العربية، والكثير فيما يخص منطقة خصوصيتها التاريخية الخاصة والمقدسة لديها، وانتصاراتها على الآخر، كما انتصرت في حوارها هذا مع الآخر، فبدت قابلة بثقافة ومنطلقات هذه الذات العربية، إنَّ هذا الحوار بين ذاتين: الأولى تعي ما تقوله، والأخرى تعيش على الوهم، والكشف عن طبيعة الردود، وقبول بعضهما، فالخصوصية الثقافية والتاريخية عامل رئيس في تأسيس منطقة دفاع عن الذات تجاه الآخر.

٢- المحور الثاني: الأنا بعين الآخر:

إنَّ الموازنة الحقيقية التي تفرض على أي شخص تقبل الآخر أن يضع نفسه مكان من يقابله، ويتقبل أفكاره وثوابته بشرط أنْ تكون حقيقية ثابتة، ففي المواجهة التي يعرضها السرد وخطابه الناطق عبر الحوار يظهر جوهر الانسان، فمهمة السرد في هذه الحالة كشف كنه المتحاور والبوح بما تخفيه النفس؛ لأنَّها ستفضح ما تحمله وتنثره قولاً وتفكيراً، من هذا المنطلق تبرز ماهية الأنا وقيمتها في عين الآخر فـــــ" هكذا تبرز ضرورة الوقوف عند الرؤية؛ بوصفها وجهة النظر البصرية والفكرية، والجمالية التي تقدم للمتلقي عالماً فنياً؛ تقوم بتكوينهِ أو نقلهُ عن رؤيةٍ أخرى " (عبدالله ابراهيم، ١٩٩٠: ١١٦)، وهذه الأنا هي الآخر المقابل أيضاً وقد تمثل رؤية الكم الجمعي الذي تنتمي إليه فيعبر عنها لذلك "تشير كلمة الأنا أو الذات عند هيكل إلى الشخص المتناهي الجزئي ولكنَّها تُشير أيضاً إلى الآخرين، وإلى ما هو مشترك بينهما، إنَّ الأنا هو عمل الفعالية التي توجد بكثره في بوتقة واحدة"(يوسف سلامة، ٢٠٠١ : ٨)، فهي تصب في وعاء واحد وكأنَّها تخرج من فم واحد، في النص الاتي يعرض لنا الراوي نظرة الأنا وتقييمها بعين الآخر:

"تدقق الأوروبية في أوراقي، لتعرف هُويتي، وما إذا كنت قد سدّدت نقود الرحلة حسب الأصول، وبمكبّر الصوتِ تعرّف السياح علي بأنَّ اسمي (جمال قاسم)، تبتسم وهي تقول: إنَّهُ العربيُ الوحيُ في المجموعة ... أستأذنُ مِن سيدةٍ ورديةِ الوجهِ، ذات شعر أشقر لامع، يبدو أنها من جيلي، في الثلاثينات من عمرها، أجدها تجلس عند النافذة.. تنظر إليّ بدون اهتمام.. أحييها بابتسامة.. تبادلني التحية بإيماءة مقتضبة" (فحماوي، ٢٠١٥: ٦-٧).

يشتغل الراوي على هذا النص السردي بعين الكاميرا التصويرية الواصفة للمكان وما يؤثثه من أشخاص، في محاولة منه لتبيان نظرة الآخر تجاه الذات، وما يعرضه النص من طبيعة هذه الشخصيات، وردود أفعالها، ورسم مواقف مباشرة تجاه هذه الشخصية، التي تمثل ثقافة ومكوناً آخر، له خصوصيته وطبيعته بإعطاء صورة مباشرة متعارف عليها في ذاكرتهم الغربية على أنَّها صورة لشخصية عدائية لهم تحمل الكثير من الهمجية والعنف تجاههم؛ مما استدعى رفع مستوى انتباه الجميع على هذه الذات، إلا أنَّها ذات تجيد التعامل مع الآخر، وتجيد سمة الحوار الثقافي، ومحاولة إقناع الآخر للتقدم أكثر نحو منطقة حديثه، ثم أكثر نحو قبول خصوصيته الثقافية، فضلاً عن بوادر استقبالهم لها بما فيهم السيدة ذات الوجه الوردي، إلا أن كلاً منهم يمتلك نظره خاصة تجاه هذه الذات، فالسيدة الأولى تمتلك نظرة تهجمية استهزائية، فيما التي بعدها يمتلكون نظرة مضطربة، فيما تظهره يائيل آدم السيدة ذات الوجه الوردي نظرة قاطبة بعض الشيء، إلا أنها تبدو أقل عدائية من سابقيها.

إن طبيعة كل الحوارات والأفعال الحياتية، تجعل من كل ذات تمتلك مواقف تجاه الآخر، وإن كان من ضمن الثقافة نفسها والتاريخ نفسه، والبناء النفسي والاجتماعي، وتختلف بأكثر عمقاً فيما لو كان المقصود فيها يمثل كيان آخر كما يصفه الراوي:

"الإنسان يا خال حيوان بشع قاتل مدمر، فهو يُدبّر الشر، ويشن الحروب، ويتفنن في التخريب وتدمير كل شيء.. لماذا؟ أنت لا تفهم! وبعد هذا كله، تجده يتفنن بالاستحمام بالصابون المعطر، وعقد الربطة على العنق. يآه، ما أحلاها، والالتزام بإتكيت الأكل بذوق عال" (فحماوي، ٢٠١٥: ١٦).

إذ تشرع هذه الأنا بالتصريح الوصفي عن طبيعة نظرتها تجاه الآخر المُعادي، وكيفية أفعاله المنزوية خلف الستار فيما هو يزاول علو قيمته الواهمة أمام الجمهور يتزين ويتفنن أمامهم في جُل أفعاله؛ إلا أنَّ أفعاله التي تركها خلف ستار مسرحه لا "يستند التعبير فيها إلى معالجة هذه الإشكالية الفكرية في الأدب؛ عن طريق المقابلة بين صورة الأنا أو ال نحن العربية، وصورة الآخر الحضاري الغربي، مع فروق الطرح التي تحددها مواقف ورؤى المفكرين والأدباء" (محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، ٢٠١٢ م: ٦٣)، فتبدو نظرتها تجاهه كارهة لذاته المراوغة في أفعالها المرفوضة، تكتنز هذه النظرة جُل رفضها لهذه الذات لمجرد التفكير في طبيعة أفعالها، وما ينتج عنها من محاولة تحجيم وجود الآخر، وهذه النظرة يجسدها الراوي بقوله:

"تنظر إليّ بحسرة تتنافى مع متعة السفر وبهجة الطبيعة الخلابة، وقد صرنا في عباب البحر، بعيدين عن ميناء (دوفر الإنجليزي) فتقول: مِن بلادِ الأشوريين هاجرَ إبراهيم إلى (جنةِ عدن) فأبعدته (سارة) إلى مكة، حيث وضع أهلَهُ في أرضٍ غير ذي زرع، ومن هناك واجهنا الاندثار، تحتَ أقدامِ خيول (السبي الكبير) بالأشوريين؛ ومن بلاد الخزر هاجرنا إلى الأندلس" (فحماوي، ٢٠١٥: ٩٩).

لتتساوى نظرتها مع ما أفصح عنه قبل قليل من كشف الكثير عن قبح أفعالهم؛ إلا أنَّها في هذا الموقف تبدو نظرة تحمل الكثير من الحقد والكراهية للآخر، على اعتبارها أنا متعالية عدائية، عملت فيمَ سبق على تهميشهم وابعادهم منذ الأزل، وسبيهم، وهجرتهم من بلاد الخزر إلى بلاد الأندلس، لتتراءى نظرتها أمام المتلقي عن طبيعتها، وفحواها تجاه الآخر، على اعتبار أنها ترفض هذه الأنا وتمقتها، لما أقدمت عليه فيمَ مضى عليها محاولة تأسيس براهين وحجج تقنع فيها المتلقي على مظلوميتها، وما تعرضت له من الذّات العربية.

الخلاصة:

١. تظهر لنا هذه الرواية-صديقي اليهودية-في النماذج التي نوردها ما انتجه الكاتب في التركيز على الاستيعاب بنوعيه الحضاري والثقافي والتأكيد على استيعاب الآخر بفكره وثقافته ومعتقده.

٢. إبراز عنصر الحوار في الرواية كركيزة مهمة تبين مدى تقبل الآخر والانصات له ولاقتناع بما يخاطب به وحرية القبول والرفض شريطة وجود الدليل الثابت.

٣. عرض الأنا وكشف مكنوناتها وتمظهرها بعين الآخر وتقييمها بعينه واعطاء حجمها الحقيقي الذي يجب أن تكون عليه لأنَّ الميزان في هذه القضية هو طروحاتها.

المصادر والمراجع:

جماليات التشكيل الروائي، أ. د. محمد صابر عبيد، و د. سوسن البياتي، عالم الكتب الحديث، ط١، إربد_ الأردن، ٢٠١٢م.

الحضارة والشخصيَّة، د. قيس النوري، مطبعة جامعة الموصل، الموصل:١٩٨١م.

الرفض في شعر أبي تمام: سالم محمد ذنون، أطروحة دكتوراه، إشراف: الدكتور إبراهيم جنداري، جامعة الموصل، كلية التربية، ٢٠٠٢م.

السرد الرسائلي: قراءة في (سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح) لمحمد صابر عبيد، محمد مطلك الجميلي، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ط١، ٢٠١٤م.

صديقتي اليهودية _ رواية، صبحي فحماوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.

في الإيقاع الروائي، د. أحمد الزعبي، المطابع التعاونية، عمان، ط١، ١٩٨٦م.

المتخيل السردي، عبد الله ابراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

مفهوم السلب عند هيجل، يوسف سلامة، الهيئة المصرية لشؤون المطابع الأميرية، مصر، ط١، ٢٠٠١م.

من النص إلى الفعل، پول ريكور، ترجمة محمد برادة- حسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، مصر: ٢٠٠١م.

موسوعة علم النفس والتحليل النفسي: عبد المنعم حنفي، مكتبة مدبولي، ١٩٧٨م.

الهوية، أليكس مكشيللي، ترجمة: علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، ط١، ١٩٩٣م.

Resources and References:

The Aesthetics of Novel Formation, Prof. Dr. Muhammad Saber Obeid and Dr. Sawsan Al-Bayati, The Modern World of Books, 1st ed., Irbid, Jordan, 2012.

Civilization and Personality, Dr. Qais Al-Nouri, Mosul University Press, Mosul: 1981.

Rejection in the Poetry of Abu Tammam: Salem Muhammad Dhunun, PhD Thesis, Supervised by: Dr. Ibrahim Jandari, University of Mosul, College of Education, 2002.

Episode Narrative: A Reading of (The Biography of the Body and the Neighing of the Wounded Rain) by Muhammad Saber Obeid, Muhammad Mutlaq Al-Jumaili, Tammuz Printing, Publishing, and Distribution, Syria, Damascus, 1st ed., 2014.

My Jewish Friend - A Novel, Subhi Fahmawi, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1st ed., 2015.

On the Novelistic Rhythm, Dr. Ahmad Al-Zoubi, Cooperative Press, Amman, 1st ed., 1986.

The Narrative Imagination, Abdullah Ibrahim, Arab Cultural Center, Beirut, 1st ed., 1990.

The Concept of Negation in Hegel, Youssef Salama, Egyptian Authority for Government Printing, Egypt, 1st ed., 2001.

From Text to Action, Paul Ricoeur, translated by Mohamed Barada and Hassan Bourquia, Ain for Human and Social Studies and Research, 1st ed., Egypt: 2001.

Encyclopedia of Psychology and Psychoanalysis, Abdel Moneim Hanafi, Madbouly Library, 1978.

Identity, Alex McShelly, translated by Ali Watfa, Dar Al-Wassim, Damascus, 1st ed., 1993.